(٢)

إحترامات: يوك أفندم*!

بعد الحرب العالمية الأولى لم يبق لبريطانيا بين العرب أصدقاء، بل عملاء وكانت بريطانيا لا ندخر وسعا فى تذكير هؤلاء بأنهم فى النهاية موظفون بريطانيون، ولكنها كانت تريد من بقية الناس أن يعاملوا أولئك العملاء على أنهم ناس محترمون: وزراء ورؤساء وزارات، والشعوب العربية كانت فقيرة وذاهلة لأنها كانت خارجة إذ ذاك من قرون طويلة من الظلم والظلام، ولكنها لم تكن غبية، ولا هى احترمت العملاء فقط، وثارت عليهم ولعنتهم وحاولت بريطانيا الدفاع عنهم ولكنها خسرت المعركة فى النهاية، لأنه فى الوقت الذى إنتهت فيه دول العملاء إنتهى أيضًا دور بريطانيا..

جورج ريبه

(من دراسة له عن الشرق الأوسط)

فى مساء يوم مظاهرة عابدين الثانية، عندما أملى عرابى شروطه على الخديو توفيق، وحصل فيه على الموافقة على إقالة وزارة رياض باشا وإسناد الوزارة إلى محمد شريف باشا وأرغمه على قبول فكرة إقامة حكم نيابى فى مصر، جلس الخديو توفيق المنهزم فى إحدى قاعات قصره المطل على النيل (قصر النيل حيث يقوم فندق هيلتون الآن) وجلس معه السير أوكلاند كولفين المستشار المالى للحكومة المصرية، وهو الذى تولى الرد على عرابى نيابة عن توفيق الذى كان الخوف قد استولى على نفسه، جلس صامتا أمام سيده الحقيقى وهو المستشار الإنجليزى ومعه السير إدوارد ماليت قنصل بريطانيا فى مصر إذ ذاك، وبعد فترة من الوقت قال

---

* نشرت هذه المقالة فى ٧ مارس ١٩٨٢م.

توفيق للسير أوكلاند كولفين – عن طريق مترجم، فقد كان توفيق لا يحسن إلا التركية العامية التى تتكلمها النساء فى القصور.

– ولكن يا جناب المستشار.. لماذ أجبت عرابى إلى ما طلب.

وقال السير كولفين: وماذا تنتظر منى أن أفعل.

– عرابى فلاح، والفلاحون شغالون بالمقاطف.

وقال السير ادوارد ماليت الذى لم يستطع السكوت:

– وسمو الخديو لماذا لم يفعل شيئًا؟.

– لأننى تركت الأمر لكم تتصرفون مع هؤلاء العصاة.

– ولماذا تركت أمر التصرف لنا وأنت حاكم هذا البلد؟.

قال توفيق: لأننى لم أشأ أن أهبط إلى مستوى أولئك العبيد، وأنتم تعرفون كيف تتصرفون معهم، وعندكم كثيرون مثلهم فى الهند، وأنتم تضربونهم بالكرباج.. هذا أمر سهل عليكم.

وقد حضر هذه المقابلة المستر هنرى كوكسون الموظف بدار المعتمد البريطانى، وكان كوكسون قد عمل طويلاً فى الهند، وقد مست كلمة الخديو إحساسه، فقد كان الإنجليز يعاملون الهنود بما هو أقسى من الكرباج، ولكنهم كانوا يزعمون أنهم يعاملون الهنود بالحسنى وأن الهنود يحبونهم ويفضلونهم على غيرهم، فقال:

– جناب الخديو، نحن لا نعامل الهنود بالكرباج، نحن نعاملهم بالإنسانية لكى نكسب احترامهم، والذين يعاملون الناس بالكرباج هم الأتراك وأنت منهم، وأبوك إسماعيل قتل إسماعيل صديقى وزيره بصورة لا يمكن أن يقبلها إنجليزى.

ولم يفهم توفيق كثيرًا مما قال الرجل، فعاد يسأل:

– ولكن لماذا لم يجرؤ الهنود على مواجهتكم بمثل ما واجهنى بـه هـذا الجندى العاصى، فقال المستر هنرى كوكسون:

– لأننا لم نفقد احترامنا فى عيون الهنود، أما أنتم فقد تم هذا الاحترام من زمن طويل.. ومن فقد احترامه مرة فمن المستحيل عليه أن يستعيده..

ونظر الخديو توفيـق إلى السير أوكلانـد كولفـين كالمستجير بـه، فقال كولفين، وكان رجلاً مهذبًا إلى حد بعيـد رغـم أنـه كـان استعماريًا شديد الاعتزاز ببريطانيا، وكان يشارك سيده وصاحب الفضـل عليـه جلادستون فى الغرور الإنجليزى والإيمان بأن بريطانيـا ينبغـى أن تحكـم العـالم كلـه قال:

أقصد ياسمو الخديو أن عليكم أن تحترموا أولئك المصريـين كمـا نحـترم نحن الهنود، لأننا بخلاف ما تظنون – نحـترم الهنـود، ولأننـا نحترمـهم فهم يحترموننا، وما صنعناه اليوم هو الصواب، لقد أعطينا عرابى وإخواته احتراما، ولابد أنهم سيعاملونكم باحترام فى مقابل ذلك.

معنى ذلك أننى لا ينبغى أن أخاف من أن يزيدوا جرأة على..

– لا ياسمو الخديو.. سيزيد احترامهم لك.

الخبر وارد فى مذكرات السـير أوكلانـد كولفـين، ويكملـه علـى مبـارك ولـه: إن (الخواجـات) الإنجليـزى انصرفـوا بعـد انصرافـهم قـال الخديـو لخادمه خضر بك، وكان مملوكا من مماليك القصر أبوه تركى وأمه حبشـية وكان الخديوى لا يثق إلا فيه وفى أمثاله:

ماذا فهمت يا خضر؟..

فقـال خضـر: احترامـات يـوك أفنـدم، فلاحـين زمبللـى (العـاملون بالمقاطف) احترامات خديو عثمانلى يوك افندم..

□□□

ولم يشعر الخديو بأى خجل من تصرفه فى ذلك اليوم، ولا هو شعر بالحياء من احتمائه بالإنجليز ورجائهم ضرب المصريين وهم أبناء وطنه – بالكرباج ولا هو أثرت فى نفسه كلمات خضر بك لأنه – أى توفيق – كان قد فقد احترامه لنفسه من زمن طويل، ومادام قد فقد احترامه لنفسه فلابد أن يفقد احترام الآخرين له، ولهذا جرؤ المستر هنرى كوكسون على مواجهته بهذا الكلام القاسى، مع أن كوكسون كان مجرد موظف بريطانى، فإن توفيق بموقفه من مواطنيه واحتمائه بالإنجليز كان قد تحول إلى موظف بريطانى هو الآخر، وبدلا من أن يحتمى بشعبه ويصبح خادم هذا الشعب ليعز به اختار أن يكون مرؤوسًا للسير أوكلاند كولفين، وهذه هى النهاية الأليمة التى صار إليها توفيق بعد يوم عابدين التالى.

وقد ظل الخديو توفيق إلى آخر أيام حياته لا يلقى من الإنجليز إلا الأزدراء، لقد تستروا وراءه لكى يحتلوا مصر زاعمين أنهم يحمون الوالى الشرعى، ولكنه ظل لا يلقى منهم إلا المعاملة على الأساس المهين الذى ارتضاه هو لنفسه، وهو أنه رعية بريطانية وبعد القضاء على الثورة العرابية بأيام ذهب الخديو فى عربة لزيارة السير إدوارد ماليت بناء على موعد، ولكنه عندما وصل إلى دار القنصل البريطانى لم يجد السير ادوارد، قيل له إنه خرج يتمشى مع زوجته وكلابه، فغضب توفيق من ذلك وعاد إلى قصره المفضل، قصر النيل، وصاح فى خضر بك..

هل يبلغ بذلك الإنجليزى الوقح أن ينسى موعده معى فقال خضر بك:

– احترامات يوك.. افندم..

وكان توفيق فى حقيقة الأمر غير جدير بأى احترام، كان إنسانا مترهلا كأنه كيس قطن، كان وجهه شاحبا لا تميزه لمحة من قوة أو عزة، كان شاحب الوجه ضعيف العينين، كانت أمه جارية تركية تسراها إسماعيل،

وعندما ولدت له ابنا رفعها إسماعيل إلى مراتب الزوجات، ومع ذلك فإن زوجات إسماعيل الأخريات، وهن أمهات حسين كامل وحسن وأحمد فؤاد كن يحتقرنها ولا يجالسنها قط. ولم يكن توفيق قد لقى أى رعاية من أبيه إسماعيل مع أنه ولده الأكبر. فلم يذهب إلى أوروبا قط، ولا هو أتقن لغة أجنبية، وقد تربى على يد أمه وزميلاتها من جوارى القصور فنشأ إنسانًا جاهلاً سخيفًا، كل ميزته أنه أضعف إخوته وأشدهم شعورًا بالصنعة والحاجة إلى الحماية، ولهذا فقد رشحته الدول الأوروبية لخلافة أبيه إسماعيل عندما قررت عزله، وقد زعموا أنه أكبر من أخواته الآخرين فى السن، وذلك أمر مشكوك فيه، ولكن الشىء الذى ميزه فى نظر الأجانب هو ضعفه وجهله وشعوره المستمر بحاجته إلى حماية الأجانب، وعندما صار خديويًا وانتهت الثورة العرابية واحتل الإنجليز مصر ظل يفضل السكن فى قصر النيل إلى جانب ثكنات جيش الاحتلال، وكان لا يحب قصر عابدين لأن ذكريات يوم عابدين كانت تخيفه، ذلك أن قصر عابدين كان فى ذلك الحين فاصلاً بين قاهرة المصريين والقاهرة الجديدة، فوراءه تقع الأحياء القاهرية الصميمة، وتوفيق لم يحب المصريين ولا هم أحبوه يومًا، ولهذا فإن كان يطمئن فى قصر النيل فى حماية سادته، وكان يشعر وهو فى عربته وحرسه وهو فى الطريق إلى عابدين بأن المصريين الشغالين بالمقاطف ينظرون إليه بازدراء، وتتردد فى أذنه كلمات خضر بك:

– احترامات يوك افندم..

□□□

لا أدرى لماذا خطر ببالى ذلك كله وأنا أقرأ وأسمع تفاصيل ما كان من موقف الأمريكيين من العرب بعد ضم إسرائيل لمنطقة الجولان، فإن ذلك العمل يعتبر دون شك عدوانًا إجراميًا من جانب إسرائيل، فليس من حقها

ولا يجوز أن تضم الجولان أو أى قطعة من أرض العرب إليها، وأمريكا بطبيعة الحال تعرف ذلك ولا ترضى عنه، بل هى لا تسمح لنفسها - من أوائل هذا القرن - بالتدخل الصريح فى شئون أى بلد من بلاد أمريكا اللاتينية، حتى بناما سلمت لها فى النهاية بحقها فى قناتها، ودخلت فى مفاوضات معها لتنظيم موضوع وضع القناة مع مرافقها تحت سيطرة بناما، مع أن الولايات المتحدة كانت تستطيع أن تظل مالكة للقناة ومنطقتها كما كان الحال عندما أنشئت القناة اوائل هذا القرن، ولكنها شعرت أنها إذا تمسكت باحتلالها لمنطقة القناة فإنها ستفقد احترامها فى نظر بلاد أمريكا اللاتينية، وهى لا تريد أن تفقد هذا الاحترام قط، لأن أهل بلاد أمريكا اللاتينية تنبهوا لأنفسهم الآن، وتماسك بعضهم مع بعض، وقرروا الوقوف فى وجه الولايات المتحدة وتزعمت ذلك المكسيك وتصدت للأمريكيين بعد تدخلهم المهين فى شئون الأرجنتين فى نهاية حكم خوان بيرون، وعندما أرادت الولايات المتحدة التدخل فى شئون بيرو عقب أحد الانقلابات العسكرية الأخيرة وقف المندوب المكسيكى فى مجلس اتحاد دول أمريكا وقال لمندوب الولايات المتحدة:

- نرجو من الولايات المتحدة الوقوف على الحياد، لقد انتهى عصر التدخل فى شئوننا، وإذا حدث أن تدخلت الولايات المتحدة كما كانت تفعل فى الماضى فإننا سنقف منها موقفا تأسف عليه.

وفى ذات مرة عندما كان الرئيس نيكسون - فيما أظن يزور المكسيك تعرض لمهانة كبرى وضرب الناس سيادته بالطوب ومزقوا العلم الأمريكى، أى أنهم علموا الأمريكيين كيف يحترمونهم.

وعندما اكتشف المكسيكيون بترولاً عظيمًا فى بلادهم كان أول ما أهمهم هو أن يتولوا هم بأنفسهم كل شئون ثروتهم النفطية، وقد خسروا كثيرًا وهم يتعلمون كيف يقيمون منشآت النفط، وخسروا كثيرًا حتى عرفوا كيف

يسوقونه بأنفسهم دون أن تستغلهم شركات الاحتكارات البترولية الكبرى، ولكنهم عرفوا كيف يكسبون احترام الولايات المتحدة بعد أن دفعوا ثمن ذلك الاحترام أو تخلصوا من عقد الخوف منها، وفى ذات مرة، عندما أراد الإنجليز التمسك بجزر فولكلون – وهى ملك الأرجنتين، وتعرف عند الأرجنتينين باسم (لاس ايسلوس مالفيناس) اضطرت الولايات المتحدة إلى التصويت إلى جانب الأرجنتين ودول أمريكا اللاتينية، وقالت إن بريطانيا لا حق لها فى احتلال هذه الجزر.

فلماذا خافت الولايات المتحدة من دول أمريكا اللاتينية؟.

– لأنها تحترمها.. لقد علمها الناس هناك كيف تحترمهم.

ولماذا وقفت الولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل فى موضوع الجولان ولم تحفل بالعرب أو بعواطفهم؟.

لأن العرب لم يعرفوا بعد كيف يفرضون احترامهم على الأمريكيين.

احترامات يوك يا افندم.

ولماذا لم يعرف العرب إلى اليوم كيف يفرضون لأنفسهم هذا الاحترام؟.

هل المسألة مسألة قوة عسكرية؟.

هل الولايات المتحدة وانجلترا (التى امتنعت عن التصويت على عرض موضوع الجولان على الجمعية العامة) تقفان إلى جانب إسرائيل تقديرًا منهما للقوة العسكرية الإسرائيلية.

الجواب بالنفى لأن الولايات المتحدة هى التى تصنع القوة العسكرية الإسرائيلية ولو شاءت أمريكا لأرغمت إسرائيل على أن تفعل ما تريد.

والجواب الحقيقى: لأنها تحترم إسرائيل.

ولماذا لا تقف إلى جانب العرب وتؤيد موقفهم مع عدالته؟.

الجواب بكل صراحة ودون منافقة للشعور العربى: لأنها لا تحترم العرب ولماذا هى لا تحترم العرب؟.

والجواب مرة أخرى بكل صراحة ودون منافقة للشعور العربى: لأن العرب لا يحترمون أنفسهم، ولو هم احترموا أنفسهم لاحترمهم الغير..

وبلاد أمريكا اللاتينية احترمت نفسها أولاً، وباحترامها لنفسها علمت الآخرين – ومنهم الولايات المتحدة – كيف يحترمونها.

وأنا أقول هذا الكلام من قلب عربى صادق، أقوله لأننى عربى أحب العرب وأعرف قدرهم وأريد لهم أن يكونوا أعظم شعوب الدنيا، ولكنى مع الأسف الشديد أشعر بأن العرب لم يعرفوا كيف يحترمون أنفسهم ومادام الأمر كذلك فلن يحترمهم الآخرون ولو كانت لديهم أقوى جيوش فى الدنيا.

وأسأل هنا سؤالاً:

– لقد امتنعت انجلترا عن التصويت على اقتراح عرض قضية الجولان على الجمعية العامة، فماذا فعل العرب؟.

هل وجهوا كلمة لوم إلى بريطانيا؟.

هل تعرضوا لأى مصلحة من مصالح بريطانيا بسوء؟.

بالعكس!.

فى نفس اليوم تعلن انجلترا أن وزير خارجيتها اللورد كارنجتون يقوم بزيارة رسمية لسوريا والأردن، وتعلن إذاعة الأردن أن بردها ترحب بوزير الخارجية البريطانية وأنها تعتبر هذه الزيارة فرصة سعيدة لتوثيق التعاون بين البلدين ونسأل: أى تعاون؟ ناس خذلوكم ولم يؤيدوكم فى أهم قضية عندكم الآن، فأى تعاون يكون بينكم وبينهم، وكيف ستعملون على توثيق هذا الذى تسمونه تعاونًا فى نفس الوقت أسمع فى إذاعة لندن وأقرأ فى الصحف أن إنجلترا فازت فى هذا الأسبوع بنحو تسعين فى المائة من المشروعات الإنشائية التى تعلن عنها البلاد العربية، وأن مجموع مبالغ

الأعمال التى فاز بها البريطانيون فى بلادنا تصل إلى ١٥٠٠ مليون جنيه استرلينى فى ثمانية شهور!!.

وفى مجلة الايكونوميست أقرأ أن معاملات إنجلترا مع البلاد العربية هى العامل الرئيسى وراء ما حققته بريطانيا من فائض فى ميزان المدفوعات يصل إلى ما يزيد على ٥٠٠ مليون جنيه إنجليزى هذا العام.

أى أنهم يطعنوننا علنا فى المجالس الدولية، ونحن نؤيدهم علنا ونعطيهم الأموال فى الميدان الاقتصادى.

فلماذا والله يراعون شعورنا؟.

ولماذا لا يؤيدون إسرائيل دون أن يخشونا.

احترامات يوك يا افندم!.

وإذا حدث أن صوت بريطانيا مرة ضد إسرائيل أو امتنعت عن التصويت فى موضوع يهم إسرائيل فهل تظن أن انجلترا تفوز بعد ذلك بقرش واحد من إسرائيل؟.

تعال معى وانظر كيف تكلم مناحم بيجين عندما جرؤت الولايات المتحدة مرة واحدة على توجيه اللوم لإسرائيل بسبب الجولان؟.

لقد شتم الولايات المتحدة شتمًا صريحًا، وقال لها إنها لا تملك الحق فى أن تفرض نفسها وصية على إسرائيل، وقال إن إسرائيل دولة محترمة وإنها ليست من البلاد التى تستضعفها الولايات المتحدة فى أمريكا الوسطى وتحيلها إلى مزرعة موز أى إلى جمهورية موز (بنانا ريبابليك) وإنها غير مستعدة للتفاهم مع الولايات المتحدة إلا على أساس الاحترام الكامل، فإذا فكرت الولايات المتحدة فى غير ذلك فلتذهب إلى الشيطان ولتضرب رأسها فى الحيط.

هل تذكرون ما أصاب الولايات المتحدة يومها من الخوف والاضطراب؟.

هل رد رئيس الولايات المتحدة يقول إن إسرائيل ينبغى أن تعلم أنها صنيعة الولايات المتحدة وصنع أيديها (وهو حق)؟.

لم يقل شيئًا من ذلك ولا هو يستطيعه مع علمنا بأن أمريكا إذا أوقفت مساعدتها لإسرائيل لضاع أمر إسرائيل.

ولكنه لا يستطيع أن يمس إسرائيل.

لأن إسرائيل مهما قلنا فيها وفى أعمالها فهى تحترم نفسها ومادامت تحترم نفسها فإن الآخرين لا يملكون إلا احترامها.

وعندما أفكر فى موضوع احترام العرب لأنفسهم أجد نفسى أمام صور أليمة جدا لنفسى، ولكنى عربى أكتب لقومى وأريد خيرهم، ومن ثم فإننى أجد لزامًا على أن أصارحهم بما فى نفسى حتى لا يستمروا فى طريق الخطأ حاسبين أنهم فى طريق الصواب، فقد أخطأ العرب فى حق أنفسهم كثيرا جدا، وهذه الأخطاء نحن ننساها أو نتناساها، ولكن الآخرين لا ينسونها، وهم أحيانا يعاملوننا على أساس تلك الصور الماضية، ومن واجبنا اليوم إذا كنا لا نستطيع محو الماضى أو تغيير صورته أن نحسن توجيه أنفسنا فى الحاضر لنسعد فى المستقبل بحياة أفضل.

مثال ذلك أننا نفخر بما نسميه بالثورة العربية، أى الانقلاب على الأتراك العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى مع أن الدور الذى قمنا به إذ ذاك دور أسيف جدًا، فقد تقدمنا متطوعين لنطعن إخواننا فى الدين – وهم الأتراك – وهم فى معركة المصير حاسبين أن ذلك يخدم القضية العربية، فكانت النتيجة أننا خدمنا أعداء الإسلام وكسرنا ظهر الأتراك وأسلمنا فلسطين للصهيونيين ووجدنا أنفسنا فى الشام والعراق مستعمرين نرسف فى أغلال الإنجليز والفرنسيين.

ومن حسن الحظ أن مصر لم تشترك فى هذه الخيانة، لأنها قبل ما يسمى بالثورة العربية كانت قد خاضت معركتها مع الاستعمارين

التركى والأوروبى وخسرت الجولة الأولى منها، وبعد الحرب العالمية الأولى دخلت الجولة الثانية بزعامة سعد زغلول، وكانت أحسن حظا فيها فقد هيأت نفسها بذلك – على الأقل – لكسب الجولة الثالثة بعد الحرب العالمية الثانية والوصول إلى الاستقلال والكرامة معا.

أما الذين قاموا بالثورة العربية على الأتراك العثمانيين، فهم الذين يستقبلون اليوم اللورد كارنجتون بالترحاب، فى نفس الوقت الذى تمتنع فيه بريطانيا عن مؤازرة العرب فى صنع أبسط شىء لعقاب إسرائيل على ما فعلته وتفعله فى الجولان.

واللورد كارنجتون وبقية الإنجليز يعرفون أن العرب لن يغضبوا قط على بريطانيا وإن صوتت ضدهم ووقفت إلى جانب إسرائيل، سيظلون رغم كل شىء يفتحون أبوابهم للإنجليز دون أن يفكروا قط فى اتخاذ موقف يعلم الانجليز كيف يحترمونه ويحترمون بلاده كان جمال عبد الناصر، وكان العرب سعداء جدا بعبد الناصر لأنه كان يبصق بين عينى الانجليز نيابة عنهم، لأنهم لا يستطيعون مواجهة الانجليز بالحزم والعزم فقصتهم معهم طويلة، أما عبد الناصر فكان استمرارا لخط واحد من المواطنين العرب، لم يخفض السلاح فى وجه الإنجليز قط – فهو – أى عبد الناصر – استمرار لسعد زغلول ومحمد فريد ومصطفى كامل وأحمد عرابى وكلهم تعرضوا لأذى الإنجليز وعانوا من الإنجليز، ولكن مصر كسبت فى النهاية لأنها – بهذا الجهاد الطويل – وبعد هزائم ومآس – علمت الإنجليز كيف يحترمونهم. ومع الإنجليز الأمريكيين والفرنسيين والروس. كل هؤلاء خاضت مصر معركة كرامتها معهم وكسبتها فى النهاية، ومع فقرها وقلة مواردها والمصاعب التى تواجهها فهى وحدها تلقت الضربات. وهى وحدها كذلك علمت الإسرائيليين كيف يحترمونها لأنها خاضت التجربة المريرة معهم مرة بعد أخرى.

أما الآخرون فما زالوا من هذه الناحية فى أول الطريق، وعليهم الآن أن يواجهوا الإنجليز والأمريكيين فى حزم وبروح التضحية الحقيقية حتى يستطيعوا إرغامهم على احترامهم، لأن صورة العرب فى ذهن الإنجليز مازالت مهتزة جدًا، وهى لهذا لا تستطيع أن ترغم الإنجليز على احترام العرب، وما معنى أن تقف انجلترا إلى جانب إسرائيل وتمتنع عن التصويت عند عرض القضية على مجلس الأمن، دون أن تخاف على مصالحها فى البلاد العربية؟ وما معنى أن تهزأ بريطانيا بمشروع إحالة قضية الجولان إلى الجمعية العامة، وهو مشروع تقدمت به الأردن وفى نفس الوقت يستقبل أهل الأردن وزير خارجية إنجلترا بالترحاب كأن شيئًا لم يحدث؟.

معناه أن الذين تقدموا بالاقتراح إلى مجلس الأمن لم يعلموا الإنجليز كيف يحترمونهم، وإلا فإن أبسط ما كان الأردن يستطيعه بعد أن تصرفت معه بريطانيا على هذا النحو هو أن يقفل أبوابه فى وجه وزير الخارجية البريطانى.

ولكن الذين فى الأردن لا يستطيعون، إنهم يستطيعون أن يشتموا أنور السادات مثلاً ويستطيعون كذلك أن يرقصوا يوم موته، ولكنهم لا يستطيعون قط أن يرفعوا بصرهم فى الإنجليز لأن لهم مع الإنجليز قصة أليمة وهى مع الأسف قصة طويلة، وهى ما زالت مستمرة وهى لا تدعو إلى الاحترام لأن بعض العرب – أو بعض زعمائهم الماضيين على الأقل – هم الذين دعوا الإنجليز إلى إحتلال بلادهم، وهؤلاء الزعماء الماضون عندما دعوا الإنجليز إلى احتلال بلادهم فتحوا البلب فى نفس الوقت للصهيونيين ليدخلوا البيت العربى ويتخذوا لأنفسهم سكنا فى ركن من أركانه.. وهذا الركن هو فلسطين..

وإليك مشهد من مشاهد بداية المأساة، أنقلها لك من كتاب صغير فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث كتبه صحفى إنجليزى يسمى دزموند

ستيوارت: قال: كان المخطط بتشديد الطاء الأولى وكسرها) الأول للثورة العربية إيرل كيتشنر الذى غرق فى بحر الشمال أول يوم بدأت فيه تلك الثورة فى مطالع سنة ١٩١٤م، كان كيشنر مقيما فى الوكالة البريطانية القاهرة.. وفى أحد أيام فبراير ١٩١٤م فتحت بعد الظهر بوابة الوكالة الكبيرة (البريطانية) لأمير من مكة يلبس عباءة حريرية، كان عبد الله أبرع أبناء الشريف حسين حاكم الحجاز فى ظل الأتراك العثمانيين (كان الأتراك هم الذين عينوه فى هذا المنصب، وكانوا يرسلون له إعانة مالية ضخمة كل سنة وكان واجبه وواجب أبنائه أن يقفوا مع العثمانيين أثناء محنة الحرب على الأقل).. كان الأمير عبد الله ابن الشريف حسين قد مر بمصر فى طريقه إلى الآستانة ليقوم بواجبه كعضو فى البرلمان العثمانى مجلس (المبعوثان) نزل ضيفا على الخديو عباس حلمى وقد جاء إلى الوكالة البريطانية ليرد زيارة كيتشنر له فى القصر الخديو، وبناء على قول الأمير عد الله إنه اختار بعد الظهر لرد زيارة الفيلد مارشال كيتشنر آملا ألا يجده فى البيت لأن القاهرة كانت ملأى بالجواسيس العثمانيين، فلم يرد أن تتصور الحكومة التركية. أنه يخطط للتآمر عليها مع البريطانيين، أما الواقع فقد كان ذلك غرضه من رد الزيارة. جلس كيتشنر مع ضيفه يتناولان الشاى على انفراد، وفى ذلك أثار بأدب قضية الحجاز فقد كان من المعروف أنه (أى الحجاز) مضطرب لأن رجال تركيا الفتاة الذين كانوا يعملون على تجديد شباب الامبراطورية العثمانية وبعث الحياة فى كيانها من جديد كانوا قد قرروا توسيع سكة حديد الحجاز بمدها من المدينة إلى مكة، ومد فرعين لها من المدينة إلى ينبع ومن مكة إلى جدة، وعينوا واليًا تركيا جديدًا على الحجاز ليتعاون مع الشريف حسين، ولكن الشريف حسين كان يكره ذلك الوالى ويعارض فى توسيع نطاق سكة حديد الحجاز لأنها تقوى سيطرة الأتراك على مكة، وفى سبيل ذلك فقد خدع أهل الحجاز وأوعز إليهم. بمعارضة هذا المشروع لأن سكة الحديد (كما زعم لهم) تجعل الحج أسهل وأقل كلفة وهم يريدون الإفادة من بقائه صعبا

باهظ التكاليف على الحجاج. انتهز عبد الله فرصة إثارة قضية الحجاز فوجه إلى كيتشنر السؤال الصريح التالى: ما هو موقف بريطانيا من ثورة عربية على الأتراك؟.

كان عبد الله الذى ألقى هذا السؤال الخطير يرتدى ثياب أمير دون أن يكون أميرًا بالفعل، لأنه كان ابن رجل يدين للدولة العثمانية بما هو فيه، كان كيتشنر يعرف ذلك ويعرف أن أباه رجل طامع يحمل لقبًا دينيًا وأطماعه تتخطى قدره وقدراته بمراحل، أما كيتشنر الإيرل والفيلد مارشال، فقد كان أهم حاكم فى الشرق الأوسط، وهو بهذا المقام الكبير لا يستطيع الإجابة عن سؤال كبير كهذا بصراحة، ولذلك اكتفى بالفعل بأن الصداقة التقليدية بين تركيا وبريطانيا تجعل من المستحيل على البريطانيين أن يتدخلوا فى شئونها الداخلية، وأن الاضطراب فى الحجاز شأن داخلى.. ولكن عبد الله فى رده على هذا الجواب الرسمى المتحفظ من جانب كيتشنر أشار إلى ما قامت به حكومة الهند البريطانية من بسط حمايتها على الكويت وقال: ألم يكن ذلك تدخلاً فى الشئون العثمانية؟..

ابتسم الرجل الإنجليزى ابتسامة حذرة: إنتهت بها المقابلة دون أن يعد بشىء.

على أن كيتشنر كان يعرف العالم الإسلامى، فقد بدأ عمله كضابط بريطانى صغير بدارسة موضوع سيطرة بريطانيا على فلسطين، وقاد الجيش المصرى بلقب سردار فاحتل السودان، وعمل فى الهند حيث كان عدد من أحسن الفرق العسكرية الإنجليزية مؤلفًا من المسلمين، وأدرك أن وقوع انقلاب طائفة من العرب المسلمين على خليفة المسلمين المحارب لبريطانيا قد يكون مفيدا لها فى تلك الظروف، لذلك أمر السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية وهو رونالد ستورز بتقديم يخت بريطانى لنقل عبد الله إلى تركيا، وكلفه بأن تستمر الاتصالات غير الرسمية بهذا المبعوث الصريح من مكة.

إلى هنا ينتهى كلام درمونت ستيوارت..

ويتجلى منه أن رجلاً عربيًا مسلمًا هو الأمير عبد الله بن الحسين بن على شريف مكة وأحد رجال السلطان العثمانى ذهب يعرض من تلقاء نفسه على بريطانيا وهى عدوة سلطانه العثمانى أن يخون ذلك السلطان فى مقابل ثمن يحدد فيما بعد.

وكان الثمن الذى قدره الشريف حسين وابنه هو أن تنشىء بريطانيا للشريف وأولاده دولة مستقلة تشمل الحجاز والشام والعراق.. أما الثمن الذى قدره كيتشنر لهذه الخيانة فقد كان من نوع الخدمة المقدمة: أى خيانة، خيانة ذلك الأمير السخيف الذى صور له خياله السقيم أنه يستطيع أن يكون خليفة المسلمين على حساب الخلافة العثمانية.

وهل يلام كيتشنر على أنه كافأ الخيانة بخيانة؟.

وإذا كان الإنسان الذى جاء يعرض عليه أن يخون قومه ودينه غير محترم فكيف يعامله كيتشنر معاملة رجل محترم.

إذا فكرت فى ذلك تفكيرًا جادًا وجدت أنه من الطبيعى ألا تأخذ بريطانيا أولئك الناس مأخذ الجد، وأين هو الجد فى تفكير إنسان يتطوع من تلقاء نفسه ليخون قومه لحساب الآخرين؟.

وتصور أنت أيها القارئ ماذا كانت تكون نظرة بريطانيا للعرب إذا كان الذى حدث هو العكس، أى إذا كانت بريطانيا قد عرضت الخيانة على العرب فأبوها، تمسكوا بالبقاء إلى جانب إخوانهم المسلمين فى وقت الحرب والشدة.. كان من الممكن جدا أن تخسر تركيا الحرب.. ولكن من المؤكد أن العرب كانوا قد استطاعوا أن يحافظوا على احترامهم لأنفسهم وبذلك يضمنون احترام الآخرين.

وقد فعل الشريف حسين وأولاده بالضبط ما فعله الخديو توفيق مع أحمد عرابى، فقد خان توفيق بلاده وانضم إلى أعداء وطنه ليحتفظ بعرشه الهزيل، وبدلا من أن يكون بطلاً أصبح مجرد موظف بريطانى.

وكما قال خضر بك لتوفيق: احترامات يوك أفندم.

فكذلك قالت وتقول بريطانيا للعرب: احترامات يوك أفندم.

□□□

المطلوب من العرب اليوم هو أن يعلموا أن أساس احترام الناس لنا هو احترامنا لأنفسنا، ولا يمكن قط أن يكون هناك احترام عربى صحيح مادام العرب يتساهلون مع من يزدرى حقوقهم، مادامت أمريكا تقف هذا الموقف منهم فلابد لهم من وقفة مع أمريكا، مادام هذا هو موقف بريطانيا من قضايانا فلا يمكن أن نستمر فى دعم الاقتصاد البريطانى بعقد الصفقات مع بريطانيا، ولو أن بريطانيا عرفت أن موقفها فى مجلس الأمن سيحدد موقفنا الفعلى منها لما جرؤت على أن تمتنع عن التصويت فى موضوع مناقشة الجولان.. ولو عرفت أمريكا أن العرب سيغضبون غضبًا حقيقيًا منها إذا هى استمرت تستعمل الفيتو لصالح إسرائيل لفكرت ألف مرة قبل أن تستعمل هذا الفيتو.

لا يمكن قط أن يكرر العرب مهزلة لأمير عبد الله ابن الشريف حسين الذى عرض على الإنجليز أن يخون الأتراك، ثم ركب يختًا بريطانيا وذهب إلى الآستانة ليحضر مجلس (المبعوثان) الذى عينه الأتراك عضوا فيه.

والخديو توفيق فقد احترام السير أوكلاند كولفين لأنه فقد احترامه لنفسه، حقا إن توفيق لم يدفع ثمن خيانته لشعبه ولكن دفعه فيما بعد ابن أخيه فؤاد، وأحمد عرابى الذى خذله الخديو فى يوم عابدين وبعده هو الذى انتصر فى النهاية لأنه كان رجلاً يحترمم نفسه ويحترم وطنه، وفى كل بلد من بلاد مصر اليوم شارع يحمل اسم عرابى وليس فيه شارع واحد يحمل اسم توفيق.

والشريف حسين مات منفيًا مبعدًا محتقرًا من الناس، أما السلطان العثمانى فقد مات هو الآخر منفيا مبعدا ولكنه كان إلى آخر حياته محترما من الناس.. لأنه كان رغم ضعفه وقلة حيلته رجلاً صادقًا مع نفسه صادقا مع الإسلام فهو لم يساوم قط على أرض فلسطين، والسلطان عبد الحميد الذى كرهه العرب ولعنوه كان أكثر احترامًا للعرب من الشريف حسين فقد رفض أن يتحدث مع تيودور هيرتسل فى أمر فلسطين فى حين أن الشريف حسين هو الذى فتح بمكره وسوء نيته – باب فلسطين لليهود.

والأمير عبد الله الذى عرض على كيتشنر أن يقوم العرب بثورة على الأتراك مات بالرصاص فى القدس التى فتح أبوابها لليهود..

والإنسان إذا فقد احترامه لنفسه لم يستطيع أن يفرض احترامه على الآخرين، وهذا يفسر لنا لماذا لم تكثرت الولايات المتحدة لمشاعر العرب. ولماذا استقبل اللورد كارنجتون فى الأردن بكل احترام مع أنه هو الذى أمر ممثله فى الأمم المتحدة بعدم التصويت مع قرار مناقشة موضوع الجولان فى القدس لأنه يعلم تماما مع من يتعامل بالضبط، كما نظر الإيرل فيلد مارشال هوارشيو كيتشنر أقوى رجل فى الشرق الأوسط فى زمانه إلى قزم ضئيل قمئ داخل دار المندوب السامى البريطانى فى مصر عصر ذات يوم من فبراير ١٩١٤م لابسا عباءة حريرية ليعرض على الأعداء خيانة قومه لقاء (حسنة) وجدوا فى النهاية أنه لا يستحقها.

احترامات يوك.. أفندم.